نزاعه مع الفِرَق والطوائف:

نزاع كثير، وفِتَنٌ دائرة بين الفرق الإسلامية المختلفة، والطوائف المنحرفة، والديانات الأُخرى التي كانت تعيش جميعاً في تلك البلاد وعلى درجات متفاوتة في الضعف والقوّة، وفي القرب أو البعد من بعضها[1].

فلمّا فتح ابن تيميّة عينيه على هذا المُعترك الهائج، أقحم نفسه فيه أيّما إقحام، واندفع في أعماقه بلا تردُّد ولا توانٍ، حتّى ركز لواءه في مركز الحَلْبَة، يوجّه سهامه إلى كلّ من خالفه في رأي أو فتوى أو عقيدة أو موقف، بلا تمييز، أفراداً كانوا أو مذاهب وطوائف، ليجعلَ من نفسه دائرةً جديدةً في ذلك النزاع، ولكنّه كان على الصعيد السياسي الدائرة الأقرب إلى حماية السلطان دائماً.

فعندما تكلّم في الصفات، وبالغ في التجسيم بعبارة لم يجرؤ عليها أحد قبله، وقام عليه علماء دمشق ونادوا ببطلان كلامه وشكوه إلى القاضي، فأبى أن يحضر إلى القضاء، تدخّل أمير دمشق، فانتصر لابن تيميّة، وأرسل في طلب من نازعه في عقيدته، فاختفى منهم جماعة، وقبض على آخرين فضربهم، فسكت الباقون، وتمهّدت الأُمور وسكنت الأحوال[2].

وكان من بين الفقهاء يُقيم الحدود بنفسه، ويُعَزِّر ويحلق رؤوس الصبيان،

---

(١) راجع (عصره الديني) في هذا الكتاب.

(٢) البداية والنهاية ١٤: ٥.

ويعرك آذانهم، وخالفه في ذلك بعضهم، فردّ عليهم، وسكنت الأُمور لصالحه[١].

وإذا أشار إلى السلطان أو نائبه بعزل قاضٍ أو خطيب أو شيخ في دار الحديث أو في ناحية من النواحي، نُفّذ طلبه على الفور وبلا ترديد[٢].

ولمّا أفتى بكفر النصيريّة ووجوب قتلهم جهّز له نائب السلطنة جيشاً قاده بنفسه وصحبه ابن تيميّة، فأبادوا خلقاً كثيراً منهم، ووطئوا أراضٍ كثيرة من بلادهم، وكان ذلك في سنة ٧٠٥ هـ[٣]. كما صحب السلطان فيمن صحبه من المشايخ ورجال الدين في وقعة شقحب مع التتار سنة ٧٠٢ هـ.

وأشدّ ميادين صراعه كان مع الصوفيّة، الأقوياء، نُظرائه في الحُظوة عند السلطان، صراع ملأ حياته وشغل أكثر من نصف كتاباته، فغير كتبه العديدة التي ألّفها ضدّهم، كان لا ينسى أن يتناولهم في شتّى كتبه الأُخرى، وربّما تكلّف كثيراً في إيجاد مناسبة ينفذ من خلالها إلى ما يشفي غليله في النيل منهم والحطّ من معتقداتهم.

فكان تشديده عليهم ومبالغته في ذلك سبباً في أوّل مجلس قضاء فِعْليّ يتعرّض له ابن تيميّة في جُمادَى الأُولى من سنة ٧٠٥ هـ بمحضر نائب السلطنة بدمشق، فأحضر النائب جمعاً من الأُمراء والمشايخ والقضاة فأداروا البحث والمناظرة، وتعدّدت المجالس، فانتهت بخلاف حادّ شجر بين المشايخ، عَزَلَ على أثره قاضي القضاة الشافعي نفسه من القضاء، وتشنّجت الأجواء، حتّى ورد كتاب السلطان الناصر من مصر في شوّال من تلك السنة، كتب فيه: إنّا كنّا قد سمعنا بعقد مجلس للشيخ تقيّ الدين ابن تيميّة، وقد بَلَغَنا ما عُقد له من المجالس، وأنّه على

---

(١) البداية والنهاية ١٤: ٣٠، ٣٦، وبعضه في الوافي بالوفيات ٧: ١٧.

(٢) انظر: البداية والنهاية ١٤: ٣٠، العقيد المعذّب: ١٤٢.

(٣) البداية والنهاية ١٤: ٣٧ ـ ٣٨، ابن الوردي ٢: ٣٦٣.

مذهب السَلَف، وإنّما أردنا بذلك براءة ساحته ممّا نُسب إليه![1].

عَقِبَ ذلك استيلاء بيبرس الجاشنكير على أُمور السلطنة، وله شيخٌ صديق من الصوفيّة يدعى نصر المنبجي، وهو الذي رماه ابن تيميّة بالضلال والجحود لأنّه يرىٰ رأي محيي الدين بن عربي، فتغيّرت الأُمور مع ابن تيميّة، واستدعي إلى مصر في نفس السنة، وتمسّك به النائب في دمشق وقال له: أنا أُكاتب السلطان في ذلك وأُصلح القضايا. ولكن الشيخ توجّه إلى مصر، وإلى مجلس قضاء يرأسه القاضي المالكي، وبينه وبين الشيخ ابن تيميّة خصومة شديدة بسبب اعتقاد ابن تيميّة في الصفات الذي عدّه المالكية تشبيهاً وتجسيماً محضاً، فدار بينهما ما أغضب القاضي فأصدر مرسوماً بسجنه فأمضى في السجن نحو سنتين، ولكنّه لم يَعْدَم الناصر خلالها، بل كان سلّار نائب السلطان أقوى نصيرٍ له، وسّع عليه في السجن وأخدمه بمن يشاء من رفقته، وأقنع القضاة والمشايخ بإخراجه من السجن ولكن الشيخ ابن تيميّة كان يصرّ على البقاء في السجن، حتّىٰ أخرجه مهنّا بن عيسى ملك العرب وأخذه إلى بيت سلّار ليمضي عنده أيّاماً ثمّ يتحوّل إلى الإسكندرية، ويستقرّ فيها حتّىٰ عودة السلطان الناصر إلى السلطنة.

ولمّا دخل السلطان مصرَ لم يكن له همٌّ إلّا لقاء الشيخ ابن تيميّة، فوجّه إليه بعد وصوله بيوم أو يومين! فقدم الشيخ تقيّ الدين إلى السلطان فأكرمه وتلقّاه وتعانقا، ثمّ انفردا ساعةً يتحدّثان ثمّ عادا ويد الشيخ بيد السلطان! فجلس السلطان، وعن يمينه القاضي، وعن يساره الوزير، وجلس الشيخ بين يدي السلطان على طرف طرّاحته[2].

واستوسقت الأحوال للشيخ في ظلّ السلطان، الصديق الحميم.

---

(١) البداية والنهاية ١٤: ٣٩.

(٢) البداية والنهاية ١٤: ٥٥.

ولم يذكر عنه أنّه أزعج السلطان في أمرٍ يمسّه أو يمسّ سياسته من أمرٍ بمعروفٍ أو نهي عن منكر، مع شيوع الفحشاء، واتّساع أسواق الخمر والحشيشة برعاية السلطان، وتفشّي الظلم والاستبداد. بل كان مذهبه: وجوب الطاعة للسلطان، وحرمة الخروج عليه وإن كان ظالماً، لأنّ الشرّ المتولّد عن ذلك أكثر من النفع والخير!.

ويقول: إنّ بعض السَّلَف كانوا يقولون: لو كان لنا دعوةٌ مجابة لدعونا بها للسلطان، برّاً كان أو فاجراً[1]!.

فغلبت تلك الفتاوى عندهم حتّى قوله تعالى: ﴿*وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ*﴾[2]!.

تلك الفتاوى التي ما نُسجت أوّل مرّةٍ إلّا لتثبيت حكم الأُمويّين الذي لم يتحقّق إلّا بالخروج على الإمام البرّ النقيّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فلا بدّ من فتوى توطّد أركانهم!.

وأيّ فتوى أتقن من هذه! فالطاعة ليست للبرّ وحده، بل للفاجر أيضاً على حدٍ سواء، بعدما أيقنوا أنّهم الفُجّار.

تلك الفتاوى التي قادتنا إلى حدّ من الهوان، تُباع فيه أوطاننا، وتُمتهن كرامتنا، ويذبح أبناؤنا على مرأىً ومسمع منّا، في ظلّ سلاطين أذلّ من العبيد، يتسابقون في الركوع لأدنى همسةٍ يهمس بها أسيادهم من أعداء الدين والوطن وأهل الوطن، وما زال السلطان هو السُلطان، يقول الشهادتين!! برّاً كان أو

---

(١) الفقيه المعذّب ابن تيمية «عبدالرحمن الشرقاوي»: ٨٤، ١٥٤.

(٢) سورة هود ١١: ١١٣.

فاجراً، وما زالت الفتوى عَينها ديناً يُتعبّد به، لا لشيء إلّا لأنّ المفتي يخشى أن يُثقِلَ كاهِلَهُ ثَمَنُ الحريّة التي لا يعرف لها معنى ! «فالشرّ المتولّد عن ذلك أكثر من النفع والخير» !!.

وأمّا مدار نزاعه مع الصوفيّة في عقائدهم فقد أفردنا لهُ فصلاً مستقلاً لأنّه من أهمّ ما اشتغل به ابن تيميّة، ومن أهمّ ما عُرف به، ولأنّ فيه من المزايا ما لم نجد أحداً قد كشف النقاب عنها.

وكان في الوقت ذاته يواجه العقائد الأُخرى، كالجَهْمِيّة[1]، والمعتزلة، والجبرية، والأشعرية[2]، وله في ذلك مؤلّفات، ومقاطع كثيرة موزّعة في كتبه المختلفة، وأكثر ما كان يدور عليه خلافه معهم هو موضوع صفات الله تعالى الذي كان من مواضيعه البارزة في حياته الفكرية.

وكان للعقيدة الأشعرية وحدها أنصار من أهل السُنّة ذبّوا عن عقيدتهم وأنكروا عليه مساسه بها.

وله بعد ذلك مع الشيعة مشوار يُثير كثيراً من علامات الاستفهام، وأضعافها من علامات التعجّب..

صنّف كتاباً أسماه (جواز قتال الرافضة)[3]، فمن هم الرافضة عنده، وكيف عرّف الشيعة، وما هي طريقته في الاستدلال على دعواه في ضلالهم وجواز قتالهم؟ وتفاصيل أُخرى سنقرؤها في وقفةٍ أعددناها مع أهمّ كتاب له ضدّ الشيعة وهو

---

(١) هم أصحاب جَهْم بن صفوان، من الجبرية الخالصة، ووافقوا المعتزلة في نفي الصفات الأزلية.
(٢) أصحاب أبي الحسن الأشعري، المتوفى سنة ٣٣٠هـ.
(٣) الوافي بالوفيات ٧: ٢٦.

(منهاج السُنّة) كتابه الذي استفرغ فيه جهوده، حتّى كأنّه يريد أن لا يدع ممّا في جُعبته شيئاً إلّا صبّه فيه.

كل ما تريد معرفته عن الحركة الوهابية. جميع المعلومات موثقة
http://alwahabiya.org
The True Picture of Saudi Wahabi Movement